

الخيال قنديل يضيء في الظلام

بقلم: حسن العاملي(*)

لدى الانسان طاقة حيوية خفية ذات قوة فاعلة يمكنها أن تغيّر الواقع. هذه القوة هي الخيال الذي هو باكورة العمل والابداع. الخيال عنصر أساسي وخلق في حياتنا، فالعمارة الشاهقة والطريق المستقيم والبستان المثمر والمصنع المنظم وغيرها ولدت من خيال. الخيال ضرورة لا غنى عنها لبعض الناس مثل الفنانين والشعراء والعلماء والمهندسين ورجال السياسة. الخيال رياضة للذهن ووقود للفكر ومنظم للذاكرة ومنشط للنفوس وحافز للإرادة، نحتاجه في الليل وفي النهار وعلى مدار الفصول. الكتاب والاداريون والعسكريون والصناعيون وأرباب المهن هم الأكثر حاجة له. يمكن أن يكون الخيال إلهاماً للروح أو دواءً للنفوس أو أداة للانتاج أو وسيلة للإنقاذ. يرافق الخيال الإنسان أثناء العمل وفي أوقات الراحة. ويقدر ما تشتد الحاجة لمطلب ما، يتسع الخيال لسدها. وعند الشدائد يتجه الخيال إلى الحيلة والابتكار. الحلم هو خيال لا إرادي نستسلم له خلال النوم ولا نستطيع تحويله إلى واقع، لكنّه يمكن أن يكون مصدر إلهام لعمل مفيد أو إشارة إلى سلوك معين. أما خيالننا الإرادي فلا يسلبنا حرية التصور، بل يعطينا مجالاً أوسع للتفكير والتصميم ويوفّر لنا طرقاً مبتكرة للتنفيذ.

ما هو الخيال؟

الخيال معروف بالفطرة وهو خارج دائرة الشك، ومع ذلك فهو من أكثر الفاعليات الذهنية إبهاماً. فكيف نتخيّل النار ولا يحرقنا لهيبتها، ونتصوّر الثلج ولا يلفحنا برده، ونتخيّل الطعام ولا يسدّ لنا جوعاً؟ وكيف يخلق النحات هيئة مرثية داخل حجر قبل أن يلمسه؟ وكيف يرسم الرسام صورة غير موجودة في الواقع؟ لذلك نسأل هل للخيال بُعد ثلاثي حتى يستوعب الأبعاد الثلاثة؟ وهل يخضع للزمن أم يتردد عليه؟ وهل هو كالضباب أو الغاز أو السائل؟ وهل يتمدد أو يتقلص ويتشكّل بحسب الحاجة؟ وهل يتلونّ حسب الرغبة والطلب؟ وهل ينتقل أسرع من الضوء؟ وهل يخضع لقوانين الطبيعة أم يتجاوزها؟ يبدو أن الخيال يملك كل تلك الصفات وأكثر، فعند الحاجة يصبح أقوى من الفولاذ وأثقل من الحديد وأصلب من الماس. وفي حين آخر يصبح أنعم من الحرير وألين من السائل وأرق من النسيم وأحرّ من الجمر. الخيال أرخص عنصر وأثمن رأسمال. إن أشرق وجهه فهو من أحب الضيوف وأبهجهم طلةً، وهو أنيس دائم عند العشاق ووسيلة تواصل عند المحبين. هو قنديل يضيء في الظلام. الخيال طاقة فكريّة فعّالة في الذهن، تمزج الأفكار والصور وتحلّلها، تخلفها وتلغيها. تمددها وتقلصها. تجمعها وتفرّقها. هذه الطاقة لا تخضع لسلطان الزمن. الزمن يتقدّم دوماً إلى الأمام بينما الخيال يسبقه أو يتراجع عنه، يقفز من فوقه أو يتباطأ عنه، أو يوقفه إذا شاء. لا يمكن للزمن أن يوقف الخيال لكن الخيال يمكنه أن يلغي الزمن.

الخيال رأسمال بلا مال

الخيال رأسمال مجاني يحفز الفكر بالطاقة وينمي ملكة الإبداع. إنّه طاقة خلّاقة تلبي الحاجات. فهو (مادة) أولية تقبل التشكّل والتركيب. يمكن للإنسان أن يتخيّل من يشاء ويكلم من يشاء ومتى شاء. يمكن للخيال أن يبني بيتاً أو يزرع شجرة أو يكتب كتاباً أو يعيش في غابة. يمثل هذه القوة السحرية يحوّل المهندس أو الصّانع أو العسكري برامجهم إلى واقع ملموس. يمكن للخيال أن يكون مسرحاً للذكريات، يمددها أو يقلصها، يغيّر مسارها

أو يمحوها، كما يفعل كاتب الرواية أو المخرج السينمائي الذي يقطع المناظر ثم يدمجها كما يفعل ذلك مبرمج الحاسوب (الكمبيوتر). يمكن للخيال أن ينير مصباحاً أو يشعل ناراً أو يطفئ حريقاً أو يقيم حفلة أو يرتب مأدبة أو يحضر عرساً. يمكنه أيضاً أن يلتقي بصديق أو يسافر إلى بلاد بعيدة بلا جواز سفر ومن دون تأشيرة دخول. كذلك يمكنه أن يحسب الأرقام ويقوم بعمليات منطقية ويصدر قرارات ويحكم بين متخاصمين. كما يمكنه أن يخلق منظرًا أو يركب صورة أو يلون ورقة أو يحرك كرسيًا أو يسوق دراجة أو يطير في الهواء أو يسبح في الماء. يمكنه أن يخاطب النجوم والشموس والمجرات ويجول في مملكة النبات وعالم الحيوان بلا عائق. يمكنه أن يكون صديقاً للمتوحد وزائراً للسجين ومؤنساً للمريض ومستمعاً للشاكي. يمثل هذه القوة يمكن للمنتخب أن يرسم صورة لأي نشاط أو يجسم أية فكرة.

الخيال قوة جبارة

نحن نخاف من الأجسام الصلبة التي تكسر أو تهشم أو تدمر. بعض الناس يخاف من السيول التي تجرف الصخور وتحطم السدود وتخرب المزروعات. بعضهم الآخر يخاف العواصف التي تزعج البيوت وتحرك الأمواج وتسوق الرياح. ليس للقوى الجبارة في الكون لون ولا رائحة ولا وزن فهي لا تُرى ولا تُلمس. قوى الجاذبية والمغناطيسية والزمن تلفنا من جميع الجهات ولا نستطيع الإفلات منها. ومع ذلك نحن نتألف معها ولا تضايقنا ولا نشكو منها. أما القوى البسيطة كسقوط عمارة أو انهيار تربة أو أمواج البحر الهائج أو الصواعق والزلازل والبراكين، فهي كوارث نراها ونلمسها ونخاف منها. والخيال الذي هو واحد من تلك القوى الجبارة، هو أخطرها، لكنه أكثرها أماناً واطمئناناً.

الخيال آلة سحرية

الخيال آلة مثل أية آلة، لكنها بلا مادة ولا قطع. مفاتيحها أفكار، يحركها المزاج وتستمد طاقتها من الذاكرة والأحاسيس، ومن الأفراح والأحزان ومن داخل الذات ومن خارجها. قوى الخيال لا تتضب وحدودها لا تنتهي. تحتاج الآلات إلى صيانة وإلى برامج ومعطيات ومعلومات. أما الخيال فهو آلة لا تبلى ولا تحتاج إلى صيانة. الخيال هو نفسه يخلق برنامج لكل ماكينة ويبكر طرقاً لتحسين أدائها.

جميع المشاريع تبدأ أولاً من خيال ثم تصبح أفكاراً وتنتهي بمخططات، ثم تتحول إلى واقع ملموس. رغم أن الخيال لا يخضع إلى أي مقياس مادي، فإنه يستطيع أن يضيف طعماً إلى شراب أو يعطر رداءً أو يلون ورقة بيضاء، وعند الحاجة يصبح الخيال ريشة بيد الرسام وإزميلاً بيد النحات وزورقاً عند البحار وسمكة عند الصياد وطعاماً عند الجائع ودواءً عند المريض ونغمًا للمغني وسيارة عند السائق ورقماً عند المحاسب وأمنية عند الحالم ومسرحاً عند الممثل وقلماً عند الكاتب وزهرة بيد العاشق. لا يوجد عمل لم يسبقه خيال ولا مخطط لم يسبقه خيال ولا مصنع لم يسبقه خيال. جميع الاختراعات نشأت عن حاجة وخيال. فالخيال من أتمن المواهب وهو وسيلة سحرية لتحقيق الأهداف.

للخيال أجنحة وللتأمل أقدام

الخيال والحرية متلازمان. ملكة الخيال تنمو في جو المرح وال عفوية. فالخيال يحلق بأجنحة في الفضاء وعيناه على الأرض. كما تفعل عقول الأطفال. وحينما يُستخدم الخيال لأهداف عملية تسيّره الإرادة وتحولّه إلى واقع، لكن الخيال يهدر الطاقة الفكرية حينما يكون عشوائياً. فكلما تعاظم الهدف أصبح الخيال أرحب والعزيمة أشد. أما الخيال العلمي الذي يخلق مشاريع مثمرة فهو خير مثال لهندسة الخيال البناءة. الخيال يمرض إذا اختلط بأوهام أو أمور غير عقلانية. أما التأمل فأقدمه في الأرض وعيناه نحو الفضاء، فالتأمل ينطلق من واقع ويبحث عن أسباب خفية لظاهرة طبيعية فيربطها مع بعضها ثم يحاول أن يستنتج منها معلومة، تساعد على فهمها. وحينما يستعين التأمل بسلامة البصيرة وأفق الخيال يصبح قوة تعمق الإدراك وتوسع المعرفة.

إذا كان للخيال وظيفة نافعة فهي وسيلة إبداع لسد حاجات. وإذا كان للتأمل هدفاً فهو وسيلة للتعلم بالإيمان والتفكير بخلق الله. وردت في القرآن الكريم عشرات الآيات التي تحث على التأمل في خلق الله.

﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ ﴿٥٠﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥١﴾ وَأَخْيَالٍ لَّيْلٍ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥٢﴾ [الجمعة: ٥٠-٥٢].

(*) عضو معاهد الهندسة البريطانية، مدرّب تقني، كاتب ومترجم.